

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان.

سميرة بوسعد. طالبة دكتوراه - أ.د عبد المالك ضيف.

جامعة محمد بوضياف المسيلة.

الملخص:

Résumé :

Plusieurs travaux romanciers arabes ont prouvé la maturation du genre du roman où ils ont établi une nouvelle vision en adoptant le courant de la conscience qui a enrichi le nouveau roman avec tous ses genres car le roman à présent prend son élan des formes de l'inconscient qui se propagent à la conscience d'une manière désordonnée et en parallèle, le roman « La nuit du milliard » de « Ghada Essemane » a poussé sur les mécanismes du courant de la conscience et la romancière a employé des outils et de nouvelles techniques, c'est pourquoi, l'architecture du roman s'est reflété dans une image distinctive à travers le monologue, débordement de la conscience et les livres décrépitudes. D'autres ajouts ont émergés paraissant en contraste et harmonie.

Mots clés : courant, conscience, monologue, mécanisme.

أثبتت العديد من الأعمال الروائية العربية نضج جنس الرواية، حيث كونت رؤية جديدة، بتبنيها تيار الوعي الذي أغنى الرواية الجديدة بكل جنسياتها، لأنها أصبحت تتطلق من أشكال اللاوعي التي تتدفق إلى مساحات الوعي بشكل غير مرتب، وبالموازاة فإن رواية "ليلة المليار" لـ"غادة السمان"، انبتت على آليات تيار الوعي، ووظفت الروائية أدوات وتقنيات جديدة، لهذا انعكس معمار الرواية في صورة مميزة من خلال المنولوج، وفيضان الوعي، والتداعي الحر، وظهرت تمظهرات جديدة يبدو عليها التعارض والتناغم معا.

الكلمات المفتاحية: تيار، الوعي، المنولوج، آليات، التداعي.

1- تيار الوعي في الرواية الجديدة:

ظهر تيار الوعي "Stream of consciusnen" خلال القرن العشرين، ليمثل مرحلة جديدة في مسيرة الإبداع

الروائي من خلال استبطان الشخصيات الروائية، فطبع الرواية بنمط سردي مغاير، من هنا وجب كشف الغموض عن المصطلح، وتحديد ظلاله الأدبية وانعكاسه على الفعل الروائي.

1-1 مفهوم تيار الوعي:

تيار الوعي تمخض عن نتائج التطور العلمي والتكنولوجي، وهو مصطلح من ابتكار الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي وليام جيمس William James (*)، "وقد ظهر لأول مرة في

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

سلسلة مقالاته (حول إسقاطات علم النفس الاستبطاني)، التي نشرت في مجلة مايند Mind عام 1884م، وأعيد طبعها بعد ذلك في كتابه "مبادئ علم النفس" Principales psychologie .⁽¹⁾

فالوعي هو المنطقة التي تحتوي الأفكار وما يتصل بها قبل مرحلة الكلام، هذا من وجهة نظر علماء النفس، وشكل حقل تجارب لعلمائه وهذا ما وضحه وليام جيمس في قوله: "إن اكتشاف أن الذكريات والمشاعر والأفكار توجد خارج الوعي الظاهر، لهو أهم خطوة حدثت إلى الأمام في علم النفس منذ أن كنت طالبا أدرس ذلك العلم".⁽²⁾

حيث جاء تشبيه الحياة الداخلية من ذكريات ومشاعر وأفكار بتيار الماء في النهر عندما تتساقط بشكل متواصل داخل الذهن، والقاسم المشترك بين تيار الماء في النهر، وتيار الأفكار هو التدفق والجريان المستمر، "فإن الفلاسفة المطلعين على علم النفس من أمثال "وليام جيمس"، و "هنري جيمس" و "برغسون" يرون أن وعي الإنسان نفسه هو عملية تطور وتشكل لا تتوقف، ومن ثم فكل إنسان لا يملك شخصية ثابتة، ولا طبيعة أو هوية قائمة أبدا لا تتغير، و إنما يملك -بدلا من ذلك- شعورا يفيض بضروب التغيير والتدفق والتفاعل عبر تيار من الذكريات والانطباعات الحسية والصور والتوترات".⁽³⁾

تيار الوعي أسلوب يهتم بالجوانب النفسية والذهنية للفرد وسبر أغوار الشخصية والتغلغل في ذاتها/ و قد اختار **وليم جيمس** المصطلح، "ليعبر عن أمرين: الأول تدفق الأفكار الذي يجري كتيار الماء في النهر، والثاني هو المكان الذي يجري فيه هذا التدفق، أي الوعي، لأن اللاوعي وإن كان دائما في داخلنا فإننا لا ندركه ولا نستطيع التعبير عنه، إنما ندرك ما يرد منه إلى وعينا كأجزاء الأحلام وزلات القلم واللسان".⁽⁴⁾

فنتائج علم النفس صدها عميق في ميدان الأدب، حيث أن "مفهوم الوعي عند جيمس شامل، يستوعب التجارب الحسية والشعورية، فهو يضم في رأيه كل ما هو عقلائي وغير عقلائي ما هو انفعالي، و ما هو مرتبط بأعمال العقل والنسيان والذاكرة".⁽⁵⁾

وانطلاقا من هنا فإنّ قصص تيار الوعي هي نوع من القصص يركز فيه أساسا على نوع من مستويات ما قبل الكلام من الوعي، بهدف الكشف عن عمق الشخصية الروائية، وارتداد المجهل المظلمة منها.

بعدما انزاح مصطلح تيار الوعي إلى الحقل الروائي لم يحافظ على ذات الخصوصية المنبني عنها في علم النفس، لأنّ الشخصية الروائية تقدم مضمونا أدبيا لا يخضع للترتيب الذي يميز مستوى ما بعد الكلام، بهذا يركز تيار الوعي في الرواية على ما يجول في ذهن الشخصية الروائية قبل خضوعه للترتيب الذي يميز مرحلة ما بعد الكلام.

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

وظهرت صيغ أدبية وأساليب روائية جديدة إثر تبني الرواية تيار الوعي أسلوبا لها وكلها صيغ تعتمد على جريان الذاكرة واستحضار ما مضى؛ لأن الذاكرة تحمل وعاءً للماضي ويتم استدعاءه متى حانت اللحظة لفيضان الوعي بشكل تلقائي، فتيار الوعي يبرز "منطقة الانتباه الذهني التي تبتدئ من منطقة ما قبل الوعي وتتمر بمستويات التفكير الذهني والاتصال بالآخرين".⁽⁶⁾ وقد لاقى مصطلح تيار الوعي وهو مصطلح إنجليزي Stream of consuosness انتشارا واسعا، وصار آلية من آليات الرواية الحديثة وبعض الدارسين ينسب الرواية الحديثة له، فاصطلح عليها برواية تيار الوعي.

فكان لنتائج ومنجزات علم النفس حول تيار الوعي الأثر العميق في "ظهور كثير من الصيغ والطرائق الفنية، فالأحلام والهلوسة والأفكار اللاواعية قد تتيح للحالة الإنسانية رؤى جديدة لا تقتصر على علماء النفس، وإنما أحسّ بها الكتاب والفنانون، وأدّت إلى ظهور أساليب جديدة، فهناك المنولوج الدرامي، والمنولوج الداخلي".⁽⁷⁾ ومن خلال هذه الصيغ استمدت رواية تيار الوعي آلياتها "حيث اكتشف أن الذكريات، والأفكار، والمشاعر، توجد خارج الوعي الظاهر، وأكثر من ذلك فهي تظهر للإنسان لا أنها سلسلة بل إنّها تيار... فيضان".⁽⁸⁾

وعلى هذا النحو لا يمكن اعتبار الروائي عالم نفس يتعامل مع باطن شخصية في مكبوتاتها، لأن "مجال الحياة الذي يهتم به أدب تيار الوعي هو التجربة العقلية والروحية من جانبيها المتصلين بالماهية والكيفية، وتشتمل الماهية على أنواع التجارب العقلية من الأحاسيس، والذكريات والتخيلات، والمفاهيم وألوان الحدس كما تشتمل الكيفية على ألوان الرمز، والمشاعر، وعمليات التداعي، ويكاد يكون من المستحيل أن نميز ماذا على كيف فهل الذاكرة مثلا جزء مما يحتويه الذهن أم أنها عملية ذهنية".⁽⁹⁾

لأنّ الروائي ليس توجهه الطب النفسي، مثل علماء النفس، و"مثل هذا التمييز الدقيق ليس بالطبع من مهمة الروائيين بصفتهم روائيين - إنّ هدفهم - إن كانوا يكتبون قصص تيار الوعي - هو توسيع الفن القصصي بتصوير الحالات الداخلية لشخصياته".⁽¹⁰⁾

ويلج من خلالها المستويات التي تقع على هامش الانتباه، وبهذا يصبح الارتداد إلى الماضي نحو الذاكرة وما ترسب في عمقها يصبح في لحظة من اللحظات رؤية أنية تتوغل في سبر دهاليز الذات، وكشف ما استتبّ في عمقها باعتماد المنولوج، والتداعي الحر للأفكار، ومناجاة النفس، وكان لهذه الآليات الأثر العميق في تجديد فن الرواية.

1-2- صدى تيار الوعي في الرواية الجديدة:

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

الرواية فن مفتوح دوما لاستقطابات العصر ممّا يجعله في حالة تجديد دائمة لأسس وآليات كتابية وتقنيات مغايرة حيث، "حاول كاتب تيار الوعي أن يرسم لنا صورة بانورامية لواقعه، دون خط زمني صاعد، لذا فتت الواقع الخارجي، ومشكلاته، ومعطياته، والعالم من حوله إلى معطيات صغيرة، في إطار ما هو قائم، وأعاد جمع هذه المتشظيات من حوله ليعيد بناء نسيجها من جديد بصورة أفضل وبشكل أجمل وفق رؤيته المحلقة خلف وحدة رؤيوية، تحاول أن تعطي العمل الأدبي قواما خاصا ومعنى خاصا متخيلا هو الخلفية التي اتكأ عليها، لإقامة بنائه الفني بهذا الأسلوب أو ذاك".⁽¹¹⁾

وكان تأثير مصطلح تيار الوعي عميقا في بنية الرواية بعد تطويعه أدبيا، وقد خصص الناقد "روبيرت همفري" Robert Humphry في دراسته المعنونة "تيار الوعي في الرواية الحديثة"، مساحات نقدية درس من خلالها الروايات التي تعتمد أسلوب تيار الوعي وصنفهم من رواده، وهم "دروثي ريتشاردسون" "Darothy Richardson" في روايتها الحجّ، و"فيرجينيا وولف" "Virginia wooff" في روايتها مسز دالواي، و"وليام فولكنر" "William foulkner" في روايته الضجة والصخب، و"جيمس جويس" في روايته يولسيس... وأهم ما يجمع بين مضامين الأعمال تقديم العالم من خلال المحتوى الذهني للشخصيات في صورة تدفق مستمر.

وقد عُرف بعدها في النقد الأدبي "في أبريل عام 1918م في مقال للناقدة ماي سنكلر May Sinclair، لدى تعقيبيها على روايات دوروثي ريتشاردسون "Dorothy Richardson"⁽¹²⁾، حيث أشارت الناقدة إلى الأسلوب المستحدث عندما قدمت الروائية شخصياتها، حيث عبّرت به عن الحالات النفسية والشكل الانسيابي لأذهانها فعرفّ التيار على أنه "التعبير الأدبي عن مذهب الأنانة الذي ينفي وجود أي واقع خارجي، ويعتبر أن الأنا وحدها هي الموجودة وأن الفكر لا يترك سوى تصوراتها".⁽¹³⁾

ووفق هذا المفهوم أنجز روائيو تيار الوعي أعمالا عكست مرحلة من مراحل تقدم الرواية حيث غادروا مراحل الوصف الخارجي التي ميزت الرواية الكلاسيكية، بالتركيز على الجوانب الخفية ضمن أنساق سردية تكشف مجاهل العالم الداخلي للإنسان.

ومناط اهتمام تيار الوعي البحث الدائم عن جوهر الأشياء، و"البحث عن المعنى في الشخصية الإنسانية أكثر من البحث عنه في الفعل وردّ الفعل الاجتماعيين وبما أنه يمثل تركيزا شديدا على الوعي غير المعبر عنه"⁽¹⁴⁾ أي الوعي الخامد في الماضي، والذاكرة، والذكريات، وهكذا "باتت الحياة الداخلية (الجوانية Inner) للأفراد في العالم الحديث فيضا وتمازجات سلسلة من الذكريات والإدراكات والرغبات التي تتدفق في حالة جريان لا ينقطع -كما عبر جيمس عن هذا الحال- وهو الأمر الذي يعيد تشكيل الهوية الشخصية للفرد كل آن- كان الروائيون الحداثيون-

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

وبغية استحضر تيار الحياة الداخلية المتدفقة قد آثروا أن يبتكروا أساليب ديناميكية في أشد الانتباه والملاحظة وبطريقة تتقاطع مع الأعراف الكتابية السابقة".⁽¹⁵⁾

حيث تميزت الروايات التي انتهجت تيار الوعي بمكونات لم تعهدها الرواية سابقا لأنها "تنظر إلى الحياة العقلية كشيء أكثر غموضا وزئبقية وأقل تجانسا وسكونا عما اعتاد الناس على افتراضه من قبل، أخذت الأفكار الروائية وقتذاك تشكل نفسها من جملة الإدراكات، والاحساسات، وبطرق عدة غير ثابتة وما عادت الرغبات مفهومة في العادة عند هؤلاء الذين يستشعرونها ويكتونون بنارها كما صارت الرغبات تتأرجح بطريقة لا يمكن التنبؤ بها".⁽¹⁶⁾

وبتركيز كتاب تيار الوعي على المنطقة الداخلية للشخصيات، انعكس أدب روائي يطرح رؤية مغايرة في فهم الحياة والإنسان، ، "من حيث أنهم فتحوا لهذا الفن منطقة جديدة من الحياة ... لقد أضافوا وظيفة عقلية، ووجودا نفسيا، لمنطقة الدافع والفعل التي كانت موجودة بالفعل ... لقد ألفوا قصصا يعتمد على لبّ التجربة الإنسانية، وقد أثبتوا أنّ ذلك، وإن لم يكن المجال العادي للقصص، فإنّه ليس غريبا عنه، ولعلّ أهم شيء فعله كتاب "تيار الوعي" بالنسبة للذهن فعلوه على نحو غير مباشر، فقد أثبتوا من خلال إنتاجهم أن الذهن الإنساني -وبخاصة ذهن الفنان- شديد التعقيد، ومستعص على الدخول في قنوات الأنماط التقليدية".⁽¹⁷⁾

ومن أولويات روايات "تيار الوعي"، الاهتمام بالمشاعر، والعقل الباطن، واللاوعي باستخدام تقنيات الاستبطان، والتحليل، والتأمل الطويل، والعمق في الذات، "فالشخصية مثلا لم تعد تنتقى على النحو المألوف، والحبكة لم تعد مطلوبة بمعناها المعروف، والاتصال بالواقع لم يعد المعنى الذي كان له في السابق، وإنما صار يعني واقع عملية الوعي بكل ما فيها من اضطراب وخفاء، وتناقض وتعقد، وواقع البحث الدائب عن تقنيات الكتابة...ومن البيهبي أن تضيق تقنيات الرواية المألوفة عن هذه الغاية الجديدة، وهذا ما يفسر تسارع بحث ممارسي الرواية الجديدة عن طرائق تعبير جديدة واختبارهم لأدوات فذة بعضها قد من سجلات لغوية".⁽¹⁸⁾

وهذه الأدوات الروائية، التي نتجت عن تبني تيار الوعي، أفضت إلى نظرة جديدة في اكتشاف حقيقة الوجود، وخلخلة المتوازن والثابت في حياة الإنسان، كما أفضت هذه الأدوات إلى مزيج من الأشياء، وخليط من المفاهيم حيث طبعها الغموض واللامنطق في كثير من الحوارات، و يعود لتيار الوعي و "وما فعله جيمس ذاته في هذا الميدان هو إغناء الوعي الروائي: إذ لم يحصل قبل جيمس أن سبر كاتب آخر تعقيد الحياة وهشاشتها ولا محدوديتها، وياتت الرواية في زمن جيمس تفرد وقتا أقل من ذي قبل لأفكار الشخصيات الروائية ومشاعرها وصارت تؤكد أعظم التأكيد على الحبكة الروائية ذاتها وحسب، ولم تعد الأفكار والمشاعر بمؤثرة إلا بالقدر الذي يستلزمه الارتقاء بالعمل الروائي"⁽¹⁹⁾، وكان لصدى شخصية تيار الوعي عند القارئ، وقعا لم

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

يعهده في أعمال الروايات المألوفة، حيث تخلف لدى القارئ علامات استفهام كبرى ومتابعة، كما تترك له مهمة اتباع المصير النهائي، وذلك لأن "الشخصيات تمتلك إدراكا دقيقا... هو ما يساهم بطريقة عظيمة التأثير في تعزيز مغامراتها الروائية ويوفر الإحساس الأوفى بما يقع عليهم وهذا هو ما يجعل الرواية قادرة على خلق واقع أكثر غنى"⁽²⁰⁾ وتميز، رغم صعوبة وضع صورة نموذجية لرواية تيار الوعي، إلا أنها ككل روائي، امتازت بخصائص جددت من ملامح الرواية.

وقد انعكست تقنيات تيار الوعي على الرواية العربية، لأن الروائي العربي شارك الروائي الغربي ذات معضلات العصر، حيث واكبت الرواية العربية مرحلة ظهور تيار الوعي، ومن خلال رواية ليلة المليار للروائية السورية لغادة السمان، تظهر تقنيات تيار الوعي.

2- تقنيات تيار الوعي في رواية ليلة المليار:

منح تيار الوعي البنية الروائية الجديدة عناصر خاصة تعتمد التناثر داخل دوائر جزئية تتكاثر باتساع ليس بالتدرجي، وصولا لبناء يكتمل لحظة القراءة، كون الرواية الجديدة المتبنية آليات تيار الوعي ترفض جماليات الوحدة والتماسك والنمو المتدرج بل صارت عالما جماليا يستعصي على الفهم الجاهز، وتعد ليلة المليار لغادة السمان رواية تعجّ بتقنيات تيار الوعي.

2-1- المنولوج الداخلي المباشر:

"المنولوج الداخلي هو ذلك التكنيك المستخدم في القصص بغية تقديم المحتوى النفسي للشخصية والعمليات النفسية لديها -دون التكلم بذلك على نحو كلي أو جزئي- في اللحظة التي توجد فيها هذه العمليات في المستويات المختلفة للانضباط الواعي قبل أن تتشكل للتعبير عنها بالكلام على نحو مقصود"⁽²¹⁾

ومما تجدر الإشارة إليه أن المنولوج الداخلي لا يعكس المكبوتات، أو المساحة التي تخفي كل ما هو حميمي ومحمي عن الرقعة المصرح بها، "وهكذا ينبغي أن يلاحظ على نحو خاص أنه تكنيك لتقديم المحتوى النفسي، والعمليات النفسية في المستويات المختلفة الانضباط الواعي، وبعبارة أخرى لتقديم الوعي، وينبغي أن يؤكد على أن المنولوج الداخلي قد يعالج الوعي في أي مستوى وليس من الضروري أن يكون تعبيرا عن الفكرة الحميمة التي ترقد في منطقة أقرب ما تكون إلى منطقة اللاوعي بل إنّ ذلك نادرا ما يكون"⁽²²⁾

واستمدت الرواية الجديدة عمقها من المنولوج الداخلي، لأنه "يهتم بكل محتويات الوعي وعملياته، لا بواحد منها فحسب، وأخيرا ينبغي أن يلاحظ أنه غير متكلم به جزئيا أو كليا، لأنه يقدم محتوى الوعي في مرحلته غير المكتملة، قبل أن تتشكل للتعبير عنها بالكلام عن قصد، وهذا هو الفرق الذي يفصل فصلا كاملا بين المنولوج الداخلي والمنولوج الدرامي ومناجاة النفس على خشبة المسرح"⁽²³⁾

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

وهذا لا يعني أن المنولوج الداخلي يكون موقعه عبثيا وينشأ بطريقة لا مبالية بين الثنايا، وإنما هناك مواقع تلائم الشخصية الروائية، وتعتمد رواية "ليلة المليار" المنولوج منذ البداية، فحينما يتوسط (خليل الدرع) مغامرة المطاردة في أجواء حرب بيروت 1982م، وهو لا يدرك شيئا سوى أنهم يطاردونه، فتصفه الروائية بالعبارة: "...اشتعل في رأسه غضب مريم أنساه ذعره في ومضة وعي حاد". (24)

ثم يبدأ خليل منولوجه الداخلي بعيدا عن تدخل الروائية بالتعليق: "(ثمّة حمقى يتابعون باسترخاء ترف الأعيبهم في أسواق (السياسة) وخياناتهم التي يبررها لهم (استراتيجيا أو تكتيكيا) كتبة محترفون مأجورون، دون أن يتوقفوا جميعا لحظة ليرقبوا الموت المعدني القادم من الأعلى لتدمير رقعة الشطرنج البيروتية... وإبادتنا جميعا...)" (25)

ثم تواصل الكاتبة وصف ذعره بقولها: "مذعور... لا يدري، هل ستقتله قذيفة العدو أو رصاصه (الصدى)..." (26)

ويتضح أن المنولوج الجاري في وعي (خليل) لا يوجهه إلى أحد داخل إطار الرواية فهو يستحضر أفكارا أخرى لا يبدو أن لها علاقة بوضعه الطارئ والمتأزم فإزا من مطاردة حادة يصحبها وابل الرصاص، ولكن هناك خيط وهمي يربط منولوجه بوضعه إذ لولا وضعه لما ولج منولوجه الداخلي.

فالبواطن قاطنة في ذهن الشخصيات إلى حين ظهور مثير أو علامة، تكون بمثابة زر يجعل المنولوج يبسط وجوده، فحينما وصل (خليل الدرع) وعائلته إلى مطار بيروت واصطفاف الحقائق على مساحة المطار ذكره بمظهر الحقائق الهاربة، نشأ منولوج (خليل الدرع): (أنزلوا حقائقهم من السيارة إلى البيت، وكنت خارجا بحقائبي من البيت إلى سيارة هرب أخرى ... بعد الـ "أهلا وسهلا" صرخت بهم لماذا لم تبقوا هناك؟ ... كانت الحكاية طويلة ...)" (27)

فبعد الحقائق فتحت مداخل متتابعة في ذهن الشخصية، فمن حقائق المطار إلى حقائق أهله من الجنوب إلى حقائقه الفارة إلى خارج الوطن إلى عجزه عن الصمود وعجزهم في ذات الآن إلى حين وقوفه على السبب الحقيقي، (... حكايتي وحكايتهم: حكاية الحصار التي عانوا منها وعانيت، وشجار ذوي القربى الذي يمهد الدرب لحصار العدو، لذا اكتفينا بالعناق الصامت...)" (28)

فالمنولوج الداخلي لا يهتم للترتيب لأنه يحدث في مرحلة ما قبل الكلام فيأتي فعلا غير مكتمل ويكون تعبيراً مقدما في مرحلة لا يفترض أن يكون هناك سامع، ويتضح من خلال المنولوج الذي تعرّف فيه (خليل الدرع) على (أمير النيل) في حين أن الثاني لا يدري عنه شيئا، (".. ضربت لأجله .. حملت حروفه وطففت بها بين الخنادق والمتاريس والسجون والإخوة والأعداء

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

وكدت أقتل وأنا أروج كلماته كمدمن مهووس.. وقرأت سطره أكثر مما قرأت أجدية جسد زوجتي، ولاست عذابه أكثر مما تحسست جراح وداد الممزقة .. تجول في بيتي، وزارني في سجنني، واقتحم أحلامي، وخرجت كلماته من حنجرتي في ليالي القصف والانكسار...".⁽²⁹⁾ فيهوي خليل بأفكاره على صورة أخذ ورد ذهني أخذ ورد ذهني، دون افتراض أن أمير محور المنولوج يسمعه أو يعلم بما يجول في خاطره.

2-2- المنولوج غير المباشر:

يمتاز المنولوج المباشر أساسا بعدم تدخل المؤلف بأي شكل ونشأته في لحظات قياسية، ويثار لأسباب وأشياء بسيطة تجعله يفتح مداخل متداخلة في ذات الآن، ولا يفترض وجود سامع، ولا قارئ ولا يسعى إلى إمداد القارئ بمعلومات بشكل مباشر، أما "المنولوج الداخلي غير المباشر هو ذلك النمط من المنولوج الداخلي الذي يقدم فيه المؤلف الواسع المعرفة مادة غير متكلم بها، ويقدمها كما لو أنها كانت تأتي من وعي شخصية ما، هذا مع القيام بإرشاد القارئ... وهذا المنولوج يكتسب الصفة الأساسية للمنولوج الداخلي، كونه ينبع من الوعي مباشرة، أي أنه يقدمه في ثوب الشخصية، ومن خصائص العمليات الذهنية لديها".⁽³⁰⁾

حيث تتدخل الروائية غادة السمان لتقديم وضع (نسيم) في قصر رغيد الزهران من خلال الضمير (هو):

"يغادر الغرفة أوقية لسان عصفور.. هذه وحدها تؤمن له إجازة يوم كامل ... سيقول إنه ذاهب لصيد العصافير وقطع أسننها، وسيفرم بعض القطع المشابهة من مؤخرة الخنزير .. وسيقضي يومه في مكتبة الجامعة لإنجاز المزيد من أطروحته. "بركاتك يا سيدي الشيخ" .. إن مهنة "معاون ساحر" ليست رديئة لشخص مثله لا يخاف العفاريت...".⁽³¹⁾

وتستمر الروائية في تقديم المنولوج غير المباشر بتحميله للضمير (هو) الذي يعود على (نسيم) ويستمر إلى أن تتسحب، لتدع الشخصية بدء منولوج آخر في ذهنها وتميزه بقوس، "إنها الخلفية لحياته منذ طفولته، أمه تهدده بأن يأتي الجنى ويخنقه، وجدته تحذره من سكب الماء الغالي على العتبات كي لا يحضر العفاريت (كنت في العاشرة من عمري حين ضبطني أمي أبلل سجادتنا الوحيدة بالماء المغلي، ضربتني فاعترفت: كنت أسكب الماء المغلي فوق العتبة لا السجادة وفعلت ذلك لإحضار عفاريت نلعب معهم وإخوتي، سمّت بالرحمان وسألنتني بذعر: هل حضر "الأسياذ"؟ هل شاهدتهم؟ لم أجب)".⁽³²⁾

ومع بدء القوس يتحول المنولوج من منولوج داخلي غير مباشر إلى منولوج مباشر، وحضور الروائي ضروري عند استخدام النمطين، "وعلى كل حال فهناك إمكانات للتنوع في هذا المنولوج ويتضح في الأغلب الأعمّ عندما يتدخل المؤلف بالإرشاد أو الشرح، ومع أنّ ذلك شيء

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

عادٍ بالنسبة للمنولوج الداخلي المباشر فإنه لم يرد أبداً عن القدر الضئيل ولم يصل أبداً الحد الذي يتوقف فيه المنولوج ليترك المجال للإحساس بمجيء الكلام من الشخصية مباشرة، وظهور المؤلف هنا يكون أغلب وأكثر ضرورة في منولوجات الشخصيات المعقدة سيكولوجيا أو في تلك المنولوجات التي تصور طبقة أعمق في الشعور".⁽³³⁾

وقد مكن المنولوج الداخلي بنوعيه من منح الرواية نفساً جديداً وتعبيراً على مستوى القراءة، مما أجبر القارئ على تغيير عدته وترتيب أخرى لأنه صار يعيش إرباكاً نظراً لفقدانه الأمان الذي عهده في العالم الجاهز المكتمل والمعدّ سلفاً في الرواية التقليدية، وليس المنولوج التقنية الوحيدة التي فتحت دهاليز الشخصية الروائية فهناك، مظاهر أخرى لتيار الوعي في الرواية.

3- مظاهر تيار الوعي:

تتشكل الشخصيات في رواية ليلة المليار عبر مظاهر، وأحياناً تبدو من خلال وعي الشخصيات بغياب وعيها، فتتنظم حركة الوعي في صيغ وأشكال متعددة لكنها تشترك في سمات الانشطار والدائرية والموارية ونشطي الذات، ومن هذه المظاهر، فيضان الوعي، والتداعي الحر حيث اعتمدت غادة السمان عليهما في نسج شبكة معقدة وتناسخات متعددة لذوات تحمل هواجس وتداخلات وتعالقات تجمع معمار الرواية.

3-1- فيضان الوعي:

ونحو تبسيط مفهوم الوعي يمكن اعتباره حواراً داخلياً في ذهن الشخصية، ولكنه قد فاض من كثرة سفر الذات بين أطراف الأفكار المخزنة من مواقف الحياة، ويمكن وصف وعي الشخصية بالمرجم عن تراكمات وشذرات موزعة في ذوات الشخصيات الروائية.

والحقيقة أن كل كاتب مسؤول على الكيفية التي ينقل بها وعي الشخصية وتنظيم تلك المادة الذهنية وفق حركة الوعي الخاص بالشخصية، فالوعي لا يتوقف إطلاقاً وإنما يتصف بالحركة الدائمة، "ولسنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا بنظرية معقدة بغية تحديد حركة الوعي، وذلك لأن ما هو واضح بالفعل يكفي في تشكيل مشكلات صعبة أمام أي كاتب فأولاً وقبل كل شيء يعدّ الوعي في حركته جارياً ولا تحدده أفكار تعسفية عن الزمن".⁽³⁴⁾

فذهن (خليل الدرغ) يتحرك بفيضان وعيه دون حدود بين الأزمنة ويتميز وعيه بالحراك المتتابع فينطلق نبل أفكاره من الزمن الآني للرواية، وهو تواجهه بسويسرا بعد فراره من أجواء الحرب في بيروت، وأثناء ترتيب كفى زوجته أمورهما، يخترق وعيه اللحظة الزمنية في سفر أنطولوجي يفقد فيه وعيه أمام زوجته، إلى فيضان اللاوعي وهذا مؤثر على وضعية الصراع التي يعيشها (خليل)، حيث تبدأ الروائية بوصف موقفه في الزمن الآني: "يقترب منها ويضمها إليه ..

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

يا لجسدها الحار الشهي .. انقضي زمن طويل منذ المرة الأخيرة ... ثلاثة أعوام .. ربّما أربعة أعوام ... لا يدري ما الذي أصابه منذ ذلك اليوم المشؤوم".⁽³⁵⁾

وتكون الكلمة الأخيرة مفتاح لبداية مدخل آخر ضمن فيضان وعيه، "كنت أبدل الكتب في واجهة مكتبتي كعادتي في بداية الأسبوع قبل استقبال زبائن الكلمة، أذكر بوضوح أنني كنت أعرض على طول واجهتي وعرضها نسخا من الكتاب الجديد للمناضل أمير النيلي...".⁽³⁶⁾

يواصل خليل فيضان اللاوعي في المكتبة إلى لحظة دخول ..مسلحان إلى مكتبتي.. حسنا هي دكان، لكنّها في النهاية مكان عملي ورزقي...

لقد طردتهما

حاولا إرغامي على بيع منشور، بعد أن أدفع لهما سلفا ثمن النسخ...".

ويواصل رفضه ويشرح فيما يقارب الصفحة سبب مواجهته لهما، "وانهالا علي ضربا بأعقاب الرشاشات التي دفعت الشعوب العربية ثمنها كي يضرب بها العدو لا الصديق".⁽³⁷⁾ وبعد الضرب يجد نفسه "في المستشفى وعظامي المحطمة ليست وحدها التي تؤلمني.. كان في داخلي شيء قد انكسر...".⁽³⁸⁾

ومنذ ذلك الوقت وخليل يعيش وضعاً قلقاً "أبيع كتب أمير النيلي ريثما يأتي أولئك الرجال المتشابهين كأنهم رجل واحد، ويقول اتبعني فأتبعه، وتكرر الأسطوانة ذاتها في الأقبية المختلفة.. من يمولك؟ ممّن تقبض؟ ما نشاطك؟ ما جماعتك؟ تخريب؟ متفجرات؟ سرقات؟".⁽³⁹⁾

ثم ينتقل بوعيه بعد امتداد فيضان الوعي إلى المقبرة، "وذاًت ليلة ساقنا الجلاذ إلى المقبرة لإعدامنا هناك تنفيذاً لخاطر عبقرى تعب من نقل الجثث ورميها في الشوارع... صحت... انطلقت راكضاً من المقبرة... فتحت زوجتي الباب ولم تعرفني ... أسكتي يا امرأة .. أنا زوجك .. أنا خليل".⁽⁴⁰⁾

وقد امتد فيضان وعي (خليل) عبر صفحات من متن الرواية، حيث انغمس في لحظة في مستنقع الذاكرة وينتهي عند النقطة التي بدأ بها وهي زوجته كفى.

3-2- التداعي الحر:

من مظاهر تيار الوعي التداعي الحر، وهو من الآليات التي استخدمتها غادة السمان وأساسه السقوط المتسلسل لأحداث الذاكرة، "وهناك ثلاثة عوامل تنظم التداعي، وهي أولاً الذاكرة التي هي أساسه، وثانياً الحواس التي تقوده، وثالثاً الخيال الذي يحدد طواعيته".⁽⁴¹⁾

في حين أن استخدام هذه العناصر وكيفية ترتيبها والطريقة التي يظهر بها وعي الشخصية، يختلف من كاتب لآخر، وعند غادة السمان فإنّها تركز على عنصر الذاكرة ويقوده الألم الداخلي، بخيال خصب، ويتجلى التداعي في شخصية (وظفان)، وقبل الشروع في التداعي

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

الحر، تصف الرواق الذي أدى إلى نسيج هذا التداعي: "تهض الساحر وطفان، و وقف أمام النافذة، وحقق في البحيرة الجميلة، ثم في زجاج النافذة الأبيض...".⁽⁴²⁾

وبعدها يبدأ التداعي الحر عندما يتذكر أثناء وقوفه، لقاءه بإحدى اللبانيات وهو في سويسرا، حيث يتذكر أسرته، "عدت إلى البيت في وقت متأخر نسبيًا، وعرفت أن عمي سيزجرني فأنا عبد لديه... حين وصلت إلى حيث وجدت رجالًا يمنعون الاقتراب من المكان... خيل إلي في الظلام أنني أسمع أصوات انفجارات وأن الدخان ينبعث من بيتنا، وقد تهاوت بعض جدرانه.. توسلت إليهم أن يدعوني أمضي... قلت لهم هذا بيتي.. أقطن هناك..

... قرعت باب الجيران فوجدته مفتوحا وهم يرقبونني مشفقين هل احترقوا؟ ... صحوت مع الفجر على أصوات قصف الاقتتال المحلي .. امتلأ قلبي كرها لكل عُنفٍ في هذه المدينة ولكل ما يتحرك .. قتال .. قتال .. موت .. دمار .. جثث)".⁽⁴³⁾

ومن ناحية الهيكل العام، فإن حركة وعي (وظفان) حسب نظامها على أساس التداعي

الحر ومن خلال الذاكرة، والحواس، والخيال تتضح على النحو الآتي:

* لقاء وطفان مع عنبرة التي عرفها في لبنان:

1- يتذكر طفولته وخوفه من العودة إلى البيت بعد أمسية شعرية.

2- وجد المنطقة مطوقة وأصابته قذيفة بيته.

3- بحثه عن كتب السحر المتبقية بين ركام الحريق.

4- إيواء الجيران لوظفان إثر احتراق جميع أهله.

5- يتحاور مع الجيران عن الأسباب المؤدية للانفجار.

6- دخوله في هستيريا لفقدان أهله جراء الحرب الأهلية.

فهذا التخطيط للتداعي الحر يجعل الشيء الخارجي وهو لقاء وطفان مع عنبرة ثم تساقطت

حياته الداخلية في خط تفكير على نحو ثابت مبتعدا عن العالم الخارجي فينتقل من جزئية إلى

أخرى بشكل مترابط وبعناية مع الجزئية السابقة.

خاتمة

أنجزت "غادة السمان" رواية ليلة المليار باستخدام آليات تيار الوعي ، ووفق تقنياته عالجت

عديد القضايا ، وأظهرت من خلالها رؤية قلقة سببها الحياة المعاصرة المعقدة والمتغيرة بسرعة.

فمكنتها تقنيات تيار الوعي (المنولوج الداخلي، وفيضان الوعي، والتداعي الحر) من استيعاب

العديد من الرؤى والمواقف والتجارب.

وعكست من خلالها الواقع البيروتية الذي ما ينفك صورة متكررة في أقطار الوطن العربي، كما

تعد آليات تيار الوعي علامة على تحولات هامة عرفها جنس الرواية.

الهوامش:

- *- وليام جيمس: فيلسوف أمريكي وعالم من علماء النفس (1846-1410) "أسس علم النفس"، "أنواع التجربة الدينية"، "الفلسفة العلمية"، له رسائل نشرها هنري جيمس بعد وفاته عام 1920.
- 1- أحلام حادي: جماليات اللغة في القصة "قراءة لتيار الوعي في القصة القصيرة السعودية (1970-1995)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2004، ص 32.
- 2- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر محمود الربيعي، مكتبة الشباب، القاهرة، د ت ط، ص07.
- 3- روجروب هنكل: قراءة في الرواية "مدخل إلى تقنيات التفسير"، تر صلاح رزق، دار الغريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2005، ص 96.
- 4- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي، انجليزي، فرنسي، مكتبة لبنان، دار النهار للنشر، لبنان، ط1، 2002، ص163.
- 5- أحلام حادي: جماليات اللغة في القصة القصيرة، ص33.
- 6- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر محمود الربيعي، ص20.
- 7- منى محمد محيلان: حركة التجريب في الرواية العربية الأردنية (1960-1994)، قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1997، ص15.
- 8- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص21.
- 9- المرجع نفسه، ص24.
- 10- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 11- حسن عليان: الرواية والتجريب، مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد الثاني، 2007، ص82.
- 12- أحلام حادي: جماليات اللغة في القصة القصيرة السعودية (1970-1995)، ص33.
- 13- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص66.
- 14- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص151.
- 15- جيسي ماتز: تطور الرواية الحديثة، تر لطفية الدليمي، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد وبيروت ودمشق، ط1، 2016، ص148.
- 16- المرجع نفسه، ص70.
- 17- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص41.
- 18- الصادق قسومة: الرواية مقوماتها ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص67.
- 19- جيسي ماتز: تطور الرواية الحديثة، ص 69.
- 20- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 21- روبرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص44.
- 22- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 23- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

- 24- غادة السمان: ليلة المليار، منشورات غادة السمان، بيروت-لبنان، دط، ص10.
- 25- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 26- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 27- المرجع نفسه، ص18.
- 28- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 29- المرجع نفسه، ص91.
- 30- روبيرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص49.
- 31- غادة السمان: ليلة المليار، ص64.
- 32- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 33- روبيرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص65.
- 34- عبد العزيز ضويو: التجريب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2014، ص82.
- 35- غادة السمان: ليلة المليار، ص53.
- 36- المرجع نفسه، ص54.
- 37- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 38- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 39- المرجع نفسه، ص55.
- 40- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 41- روبيرت همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، ص65.
- 42- غادة السمان: ليلة المليار، ص144.
- 43- المرجع نفسه، من ص 144 إلى 147.

آليات تيار الوعي في رواية ليلة المليار لغادة السمان . سميرة بوسعد - أ.د عبد المالك ضيف

المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

1- (السمان) غادة: ليلة المليار، منشورات غادة السمان، بيروت-لبنان، د.ت.ط.

ثانياً-أ- المراجع:

1- (حادي)أحلام: جماليات اللغة في لاقصة "قراءة لتيار الوعي في القصة القصيرة السعودية (1970-1995)", المركز الثقافي العربيين المغرب، ط1، 2004.

2- (ضويو) عبد العزيز: التجريب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إريد-الأردن، ط1، 2014.

3- قسومة (الصادق): الرواية مقوماتها ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.

ب- المعاجم:

1- (زيتوني) لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي، انجليزي، فرنسي، مكتبة لبنان، دار النهار للنشر، لبنان، ط1، 2002.

ج- ثالثاً- الكتب المترجمة:

1- ماتر (جيسي): تطور الرواية الحديثة، تر لطيفة الدليمي، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد و بيروت ودمشق، ط2002، 1.

2- همفري (روبيرت): تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر محمود الربيعي، مكتبة الشباب القاهرة، د ت ط.

3- هنكل (روجروب): قراءة في الرواية "مدخل إلى تقنيات التفسير"، تر صلاح رزق، دار الغريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2005.

رابعاً- الدوريات:

1- عليان(حسن): الرواية والتجريب، مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد الثاني، 2007.

2- (محمد محيلان) منى: حركة التجريب في الرواية العربية الأردنية(1960-1994)، قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في الرواية العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1967.